القسم الرابع

فى نوادر الشعراء

صريع الغوانى

دخل مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى يومًا على الفضل فأقام عنده وشرب معه، وكانت على رأس الفضل وصيفة تسقيه كأنها لؤلؤة، فلمح الفضل مسلمًا ينظر إليها. فقال: قد أعجبتك والله يا أبا الوليد فقل أبياتًا لأهبها لك: فأنشد:

إن كنت تسقين غير الراح فاسقينى ... كأسًا ألذ بها من فيك تشفينى
عيناك راحى وريحانى حديثك لى ... ولون خديك لون الورد يكفينى
إذا نهانى عن شرب الطلا حرجٌ ... فخمر عينيكِ يغنينى ويجزينى
لولا علامات شيب لو أتت وعظت ... لقد صحوت ولكن سوف تأتينى
أرضى الشباب فإن أهلك ففى قدرٍ ... وإن بقيت فإن الشيب يسلينى

فقال الفضل: خذها بورك لك فيها.

* * *

صريع الغوانى والرجل

سأل رجل مسلمًا، لم تدعى صريع الغوانى؟ فأنشأ يقول:

إن ورد الخدود والأعين النجل ... وما فى الخدود من أقحوانِ
واسوداد الصدغين فى واضح الخدِّ ... وما فى الصدور من رمانِ
تركتنى لدى الغوانى صريعًا ... فلهذا أدعى صريع الغوانى

* * *

صريع الغوانى والكناس

وقف صريع الغوانى بباب محمد بن منصور فاستسقى فأمر وصيفًا له فأخرج إليه خمرًا فى كأس مذهبة، فلما نظر إليها فى راحته قال:

ذهب فى ذهب راح ... بها غصن لحين
وأنت قرة عينى ... مر بدى قرة عين
قمرًا يحمل شمسًا ... مرحبًا بالقمرين
لا جرى بينى ولا بينه ... ما طائر بين
وبقينا ما بقينا ... أبدًا متفقين
فى غبوق وصبوح ... لم نبع نقدًا بدين

* * *

صريع الغوانى يرثى زوجة له

كانت لمسلم بن الوليد زوجة يحبها فماتت، فجزع عليها جزعًا شديدًا وتنسك مدة وعزم على ملازمة ذلك، فأقسم عليه بعض إخوانه ذات يوم أن يزوره، ففعل فأكلوا وقدموا الشراب فامتنع منه مسلم وأبى وأنشأ يقول:

بكاء وكأس كيف يتفقان ... سبيلاهما فى القلب مختلفان
دعانى وإفراط البكاء فإننى ... أرى اليوم فيه غير ما تريانى
غدت والثرى أولى بها من وليها ... إلى منزل قاص لعينك دانى
فلا حزن حتى تنزف العين ماءها ... وتعترف الأحشاء للخفقان
وكيف يدفع اليأس والوجد بعدها ... وسهماهما فى القلب يختلجان

* * *

الحسن بن هانئ والجارية

قال الحسن بن هانئ المعروف بأبى نواس: حججت مع الفضل بن الربيع حتى إذا كنا ببلاد فزارة وذلك إبان الربيع نزلنا بإزاء ماء لبنى تميم ذا روض أريض ونبت غريض تخضع لبهجته أطايب الشذا، فقرت بنضرتها العيون وارتاحت إلى حسنها القلوب وانفرجت لبهائها الصدور، فلم نلبث أن أقبلت السماء فانشق غمامها وتدانى من الأرض ركامها وقد غادرت الغدران مترعة تتدفق والقيعان تتألق رياض مونقة ونوافح من ريحها عبقة، فسرحت طرفى راتعًا منها فى أحسن منظر ونشقت من رياها أطيب من المسك الأذفر، فلما انتهينا إلى أوائلها إذا نحن بخباء على بابه جارية مشرقة ترنو بطرف مريض الجفون وسنان النظر، فقلت لزميلى: استنطقها، قال: وكيف السبيل إلى ذلك، قلت: اطلب منها شربة ماء، فطلب، فقالت: حبًا وكرامة ومضت تتمايل كغصن البان بقامة كقضيب الخيزران، فراعنى ما رأيت منها، ثم أتت بالماء فشربت منه وصببت باقيه على يدى، ثم قلت: وصاحبى أيضًا عطشان، فأخذت الإناء فذهبت فقلت لصاحبى: من الذى يقول:

إذا بارك الله فى ملبس ... فلا بارك الله فى البرقع
يريك عيون الدمى غرة ... ويكشف عن منظر أشنع

فسمعت كلامى فأتت وقد نزعت البرقع ولبست خمارًا أسود وهى تقول:

ألا حىّ ربعى معشر قد أراهما ... أقاما فما أن يعرفا مبتغاهما
هما استسقيا ماءً على غير ظمأة ... ليستمتعا باللحظ ممن سقاهما

فشبهت كلامها بعقد در وهى فانتثر بنغمة عذبة رقيقة رخيمة لو خوطب بها صم الصلاب لانبجست مع وجه يظلم من نور ضياء العقول وتتلف من روعته مهج النفوس وتخف فى محاسنه رزانة الحليم ويحار فى بهائه طرف البصير، فهمت بها أى هيام وخررت ساجدًا فأطلت من غير تسبيح، فقالت: ارفع رأسك أيها الشاب ولا تذم بعدها برقعًا فلربما انكشف عما يصرف الكرى ويحل القوى ويطيل الوجد والجوى، فبقيت والله معقول اللسان عن الجواب حيران لا أهتدى لطريق إلى أن آن وقت الرحيل فانصرفت من عندها وأنا أقول:

يا حسرتا مما يجن فؤادى ... أزف الرحيل بعبرتى وبعادى

أبو نواس والجارية جنان

كان أبو النواس يحب جنان حبًا قاتلاً عظيمًا، وكانت هى فتاة حسناء أديبة عاقلة ظريفة تعرف الأخبار وتروى الأشعار، فرآها أبو النواس عند مولاها الوهاب فاستحلاها ووقع حبها فى قلبه إلى أن صار يردد ذكرها فى كل مكان، فقيل له يومًا: إن جنان عازمة على الحج، فقال: إنى على إثرها أحج، فلما علم أنها خارجة سبقها وما كان نوى الحج ولا أحدث عزمه إلا خروجها، فصار يسترق منها النظرات ويبغى الفرص فلا يجد لها سبيلاً، فلما عادت عاد معها وأنشد يقول هذه الأبيات:

ألم تر أننى أفنيت عمرى ... بمطلبها ومطلبها عسيرُ
فلما لم أجد سببًا إليها ... يقربنى وأعيتنى الأمور
حججت وقلت قد حجت جنان ... فيجمعنى وإياها المسير

ثم كتب إليها يقول:

إلهنا ما أعدلك ... مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك ... لبيك إن الحمد لك
والملك لك لا شريك لك ... والليل لما أن حلك
والسابحات فى الفلك ... على مجارى المنسلك
ما خاب عبد أملك ... أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك ... كل نبى ومن سلك
وكل من أهلَّ لك ... سبح أو لبى فلك
يا مخطئًا ما أغفلك ... عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك ... لبيك إن الملك لك
والحمد والنعمة لك ... والعز لا شريك لك

فلما بلغها الكتاب لم تجبه عليه، وحدث أنها جاءت يومًا إلى عرس فى جواره فلما عزمت على الانصراف رآها أبو النواس فأنشد بديهًا:

شهدت جلوة العروس جنان ... فاستمالت بحسنها النظاره

حسبوها العروس حين رأوها فإليها دون العروس الإشاره

وغضبت يومًا جنان من كلام كلمها به، فأرسل يعتذر إليها، فقالت للرسول قل له: «لا برح الهجران ربعك ولا بلغت أملك ممن أحبتك»، فرجع الرسول، فسأله عن جوابها، فلم يخبره، فقال:

فديتك فيما عتبك من كلام نطقت به على وجه جميلِ
وقولك للرسول عليك غيرى فليس إلى التواصل من سبيل
فقد جاء الرسول له انكسارٌ وحال ما عليه من قبول
ولو ردّت جنان مرد خيرٍ تبين ذاك فى وجه الرسول

فلم تزل جنان من أبى النواس فى معرض الصد والحنق إلى أن أنشد لها أبياتًا حسان نفت عنها الكدر والشك وهى:

جنان إن جدت يا منای بما آمل لم تقطر السماء دما
وإن تمادى ولا تماديت فى منعك أصبح فى قفرة رمما
علقت من لو أتى على أنفس الماضين والغابرين ما ندما
لو نظرت عينه إلى حجر وشد فيه فتوره سقما

* * *

أبو نواس وامرأة من الثقفيين

مرت بأبى النواس امرأة من الثقفيين، فسألها عن جنان، فأخبرته خبرها وقالت قد سمعتها تقول لصاحبة لها من غير أن تعلم بى: «ويحك قد آذانى هذا الفتى وضيق صدرى وسد فى وجهى السبل بحدة نظره وتهتكه فقد لهج قلبى بذكره حتى رحمته لما به»، ثم التفتت فأمسكت عن الكلام، ففرح أبو النواس بذلك، فلما قامت المرأة أنشأ يقول:

يا ذا الذى عن جنانٍ ظل يخبرنا بالله قل واعد يا طيب الخبر
قال اشتكتك وقالت ما ابتليت به أراه من حيثما أقبلت فى أثرى
ويعمل الطرف نحوى إن مررت به حتى ليخجلنى من حدة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمنى فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بى هذا ويدمنه حتى لقد صار من همى ومن وطرى

ما كتبته جنان لأبى نواس

أرسلت جنان لأبى النواس تقول: «قد شهرتنى فاقطع زيارتك عنى أيامًا لينقطع بعض القالة»، ففعل وكتب إليها:

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا ... وبيننا حين نلتقى حسنُ
ندافع الأمر وهو مقتبل ... فشب حتى عليه قد مرنوا
فليس يقذى عينًا معاينة ... له وما إن تمجه أذن
ويح ثقيف ماذا يضرهم ... لو كان لى فى ديارهم سكن
أريب ما بيننا الحديث فإن ... ردنا فزيدوا فما لذا ثمن

ولما طال الفراق وضاقت دون لقياها الحيل كتب إليها من بغداد:

كفى حزنًا أن لا أرى وجه حيلة ... أزور بها الأحباب فى حكمانِ
وأقسم لولا أن تنال معاشر ... جنانًا بما لا أشتهى لجنانَ
لأصبحت فيها دانى الدار لاصقًا ... ولكن ما أخشى فديت عدانى
فواحزنا حزنًا يؤدى إلى الردى ... فأصبح ماسورًا بكل لسان
أرانى انقضت أيام وصلى بينكم ... وآذن فيكم بالوداع زمانى

* * *

عتاب أبى نواس وجنان

بلغ أبا نواس أن امرأة ذكرت لجنان عشقه لها، فشتمته جنان وتنقصته وذكرته أقبح الذكر، فأنشد يقول:

وإباء بى من إذا ذُكرت له ... وطول وجدى به تنقصنى
لو سألوه عن وجه حجته ... فى سبه لى لقال يعشقنى
نعم إلى الحشر والتنادى نعم ... أعشقه أو ألقى فى كفنى
أصبح جهرًا لا أستتر به ... عنفنى فيه من يعنفنى
يا معشر الناس فاسمعوه وعوا ... إن جنانًا صديقة الحسن

فبلغها ذلك فهجرته وأطالت هجره، فرآها ليلة فى منامه وأنها قد صالحته، فكتب إليها:

إذا التقى فى النوم طيفانا ... عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرة العين فما بالنا ... نشقى ويلتذ خيالانا
لو شئت إذا أحسنت لى فى الكرى ... أتممت إحسانك يقظانا
يا عاشقين اصطلحا فى الكرى ... وأصبحا غضبى وغضبانا
كذلك الأحلام غدارة ... وربما تصدق أحيانا

❁ ❁ ❁

غضب أبى نواس ورضاؤه عليها

رأى أبو النواس جنانًا فى ديار ثقيف، فقابلته بما كره، فغضب وهجرها مدة، فأرسلت إليه رسولاً تصالحه، فرده ولم يصالحها، فرآها فى النوم تطلب صلحه فقال:

دست له طيفها كيما تصالحه ... فى النوم حين تأبى الصلح يقظانا
فلم يجد عند طيفى طيفها فرجًا ... ولا رثا لتشكيه ولا لانا
حسبت أن خيالى لا يكون لما ... أكون من أجله غضبان غضبانا
جنان لا تسالينى الصلح سرعة ذا ... فلم يكن هينًا منك الذى كانا

وبعد ذلك ورد إليه كتاب منها وفى سطوره بعض المحو فكتب إليها يقول:

أكثرى المحو فى كتابك وامحيه ... إذا ما محوته باللسانِ
وامرى بالمحاء بين ثناياك ... العذاب المفلجات الحسانَ
إننى كلما مررت بسطر ... فيه محوٌ لطعته بلسانى
تلك تقبيلة لكم من بعيد ... أهديت لى وما برحت مكانى

❁ ❁ ❁

وصف أبي نواس لمحبوبته جنان

رأى أبو النواس جنانًا في مأتم سيدها تندبه باكية وهي مخضبة فقال بديهًا:

يا قمـــرًا أبرزه مـأتـــمُ ... يندب شجـــوًا بين أترابِ
يبكي فيذرى الدر من نرجس ... ويلطـــم الـورد بعنـــــاب
لا تبكي ميتًا حل في حفرةٍ ... وابـك قتيـلاً لك بالبـاب
أبـرزه المـأتم لي كـــارهًا ... برغم دايـات وحجـــــاب
لا زال موتًا دأب أحبـابه ... ولا تـزل رؤيتـــــه دابي

* * *

اعتلال أبي نواس لعلة جنان

دخل على أبي نواس بعض أصحابه يعودونه وهو مريض فوجدوا به خفة، فلما رآهم فرح وسر لقدومهم ثم قال: من أين جئتم؟ قالوا: من عند جنان، فقال: أوَكانت عليلة، قالوا: نعم وقد عوفيت الآن، فقال: والله أنكرت علتي هذه ولم أعرف لها سببًا غير أني توهمت أن ذلك لعلة نالت بعض من أحب، ولقد وجدت في يومي هذا راحة ففرحت طمعًا أن يكون الله عافاها منه قبلي ثم دعا بدواة وكتب إلى جنان:

إني حممـــت ولم أشعر بحماك ... حتى تحـدث عـــوادي بشكـــواكِ
فقلت ما كـانت الحمى لتطرقني ... من غير مـــا سبب إلا بحماكِ
وخصـلة قمت فيهـــا غير متهم ... عـافاني الله منهـــا حين عـافاكِ
حتى إذا ما انقضت نفسي ونفسك في ... هذا وذاك وفي هذي وفي ذاكِ

* * *

فضل الشاعرة وزائرها

قال يحيى بن الخصيب: كنت عند فضل الشاعرة إذ استأذن عليها إنسان: فأذنت له وقالت: ما حاجتك، قال: تجيزين مصراع بيت من الشعر، قالت: ما هو، قال:

من لمحب أحب فى صغره

فقالت:

قصار أحدوثة على كبره
من نظر شفه وأرقه فكان مبدأ هواه من نظره
لولا الأمانى لمات من كمد مر الليالى تزيد فى ذكره
ما إن له مسعد فيسعده بالليل فى طوله وفى قصره

* * *

محمد بن العباس وفضل الشاعرة

كتب محمد بن العباس اليزيدى يومًا إلى فضل الشاعرة هذه الأبيات:

أصبحت فردًا هائم العقل إلى غزالٍ حسن الشكلِ
أضنى فؤادى طول عهدى به وبعده عنى وعن وصلى
منية نفسى فى هوى فضل أن يجمع الله بها شملى
أهواك يا فضل هوى خالصًا فما بقلبى عنك من شغل

فأجابته تقول:

الصبر ينقص والسقام يزيد والدار دانية وأنت بعيدُ
أشكوك أم أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود
إنى أعوذ بحرمتى بك فى الهوى من أن يطاع لديك فى حسو-

* * *

فضل وأحد جلساء الخليفة

كانت فضل تهوى أحد جلساء الخليفة سرًا فكتب لها خليلها يومًا رقعة سلمها إياها فأخذتها فلما فضتها وجدت فيها:

ألا ليت شعرى فيك هل تذكريننى ... فذكراك فى الدنيا إلىَّ حبيب
وهل لى نصيب من فؤادك ثانيًا ... كما لك عندى فى الفؤاد نصيب
ولست بموصول فأحيا بزورةٍ ... ولا النفس عند اليأس عنك تطيب

فكتبت إليه:

نعم وإلهى إننى بك صبة ... فهل أنت يا من لا عدمت مثيبُ
لمن أنت منه فى الفؤاد مصورٌ ... وفى العين نصب العين حين تغيب
فثق بودادٍ أنت مظهر مثله ... على أن بى سقمًا وأنت طبيب

* * *

المتوكل وفضل الشاعرة وبنان

اتكأ المتوكل يومًا على يد فضل الشاعِرة وبنان وجعل يمشى فى داره وقال لهما أجيزا لى قول الشاعر:

تعلمت أسباب الرضا خوف عتبها ... وعلمها حبى لها كيف تغضبُ

فقالت فضل:

تصد وأدنو بالمودة جاهدًا ... وتبعد عنى بالوصال وأقرب

فقال بنان:

وعندى لها العتبى على كل حالة ... فما منه لى بد ولا عنه مذهب

* * *

فضل الشاعرة وصديق ابن أبى طاهر

ألقى أحد أصحاب أحمد بن أبى طاهر على فضل الشاعرة يومًا هذا البيت:

ومستفتح باب البلاء بنظرة تزود منها قلبه حسرة الدهر

فقالت بديهة:

فوالله لا يدرى أتدرى بما جنت على قلبه أو أهلكته وما تدرى

* * *

سعيد بن حميد وفضل الشاعرة

كان بين فضل وسعيد بن حميد الشاعر مراسلات ومواصلات أدبية، فحضر مجلسها يومًا ومعه بنان، فأقبلت على بنان وتركته، فذهب مغضبًا، فظهر لها فى وجهه ذلك فكتبت إليه:

وعيشك لو صرحت باسمك فى الهوى لأقصرت عن أشياء بالهزل والجدّ
ولكننى أبدى لهذا مودتى وذاك وأخلو فيك بالبث والوجد
مخافة أن يغرى بنا قول كاشح عدوٍ فيسعى بالوصال إلى الصد

فكتب إليها سعيد:

تنامين عن ليلى وأسهره وحدى وأنهى جفونى أن تبثك ما عندى
فإن كنت لا تدرين ما قد فعلته بنا فانظرى ماذا على قاتل العمد

* * *

المتوكل وفضل الشاعرة

قال المتوكل: كان بينى وبين فضل موعد للقاء، فشربت قبل مجيئها وسكرت فنمت، فجاءت فضل فحركتنى فلم أنتبه، فلما يئست من إيقاظى كتبت رقعة ووضعتها على مخدتى وانصرفت، فلما انتبهت وجدتها فإذا مكتوب فيها:

قد بدا شبهك يا مو لاى يحـدو بالظلام
قم بنـا نقضى لبانـا ت التـزام والتـآم
قبل أن تفضحنا عو دة أرواح النيـام

* * *

سعيد بن حميد وفضل الشاعرة

دخلت فضل يومًا على سعيد بن حميد فوثب إليها وسلم عليها وسألها أن تقيم عنده فقالت: قد جاءنى وحياتك رسول من القصر فليس يمكننى الجلوس وكرهت أن أقيم ببابك ولا أراك، فقال سعيد بديهة:

قربت ولا نرجو اللقاء ولا نرى لنا حيلة يدنيك منا احتيالها
فأصبحت كالشمس المنيرة ضوءها قريب ولكن أين منا منـالها
وظاعنة ضنت بهـا غربة النوى علينا ولكن قد يلم خيـالها
تقر بهـا الآمـال ثم تعوقها مـماطلة الدنيا بهـا واعتلالهـا
ولكنهـا أمنيـة فلعلهـا يجود بها صرف النوى وانتقالها

وتغاضب سعيد بن حميد وفضل أيامًا فكتب إليها:

تعـالى نجـدد عهد الرضا ونصفح فى الحب عما مضى
ونجرى على سنة العـاشقين ونضمـن عنى وعنـك الرضـا
ويبذل هـذا لهـذا هـواه ويصبر فى حبه للقضـا
ونخضع ذلاً خضـوع العبيـد لمولى عـزيزٍ إذا أعـرضـا
فإنى مذ لجَّ هـذا العتـاب كأنى أبطنت جمر الغضـا

فسارت إليه وصالحته.

* * *

تخلف فضل عن سعيد بعد حبها له

بينما كان سعيد يومًا فى مجلس الحسن بن مخلد إذ جاءه غلام برقعة من فضل فقرأها فإذا هى تصف شوقها وتشكو ما تلقاه على البعد، فكتب إليها هذه الأبيات:

يا واصف الشوق عندى من شواهده قلب يهيم وعين دمعها يكفُ
والنفس شاهدة بالود عارفة وأنفس الناس بالأهواء تأتلف
فكن على ثقة منى وبينة أنى على ثقة من كل ما تصف

فلما وصل إليها الجواب طاب قلبها وسارت إليه وأقامت عنده عامة النهار وكرت راجعة ولما تعشقت بنان بن عمر المغنى وعدلت عن سعيد أسف عليها وأظهر تجلداً ثم قال فيها:

قالوا تعزى وقد بانوا فقلت لهم بان العزاء على آثار من بانا
وكيف يملك سلواناً لحبهم من لم يطق للهوى سراً وكتمانا
كانت عزائم صبرى أستعين بها وصارت علىَّ بحمد الله أعوانا
لا خير فى الحب لا تبدى شواكله ولا ترى منه فى العينين عنوانا

فلما بلغها الأبيات وما يقاسى لأجلها ندمت على ما كان وعادت فقالت له: ها أنا أموت وتستريح منى، فأنشأ يقول:

لا متى قبلى بل أحيا وأنت معًا ولا أعيش إلى يومٍ تموتينا
لكن نعيش بما نهوى ونأمله ويرغم الله فينا أنف واشينا
حتى إذا قدر الرحمن ميتتنا وحان من أمرنا ما ليس يعدونا
متنا جميعًا كغصنى بانة ذبلا من بعد ما نضرا واستوثقا حينا

واجتمع بها ذات يوم فى مجلس حافل، وبينا هم جالسون إذ دخل عليهم بنان المذكور، فأقبلت عليه فضل بحديثها، فغضب سعيد غضبًا شديداً، وتبين بنان القصة فانصرف، وأقبل عليها سعيد يعذلها ويؤنبها ساعة ثم أمسك فقالت منشدة:

يا من أطلت تفرسى فى وجهه وتنفسى
أفديك من متدلل يزهو بقتل الأنفس
هبنى أسأت وما أسأت بلى أقول أنا المسى
أحلفتنى أن لا أسارق نظرة فى مجلسى
فنظرت نظرة مخطئ أتبعتها بتفرس
ونسيت أنى قد حلفت فما عقوبة من نسى

فقام سعيد وقبل رأسها وقال: لا عقوبة عليه بل نحتمل هفوته ونتجافى عن إساءته.

العباس بن الأحنف

كان بعض الفتيان مجتمعين فى حلقة لهو وطرب فمر بهم رجل لطيف حلو الوجه سرى الهيئة عليه سيماء المجد والنعم، فقال: إنى سمعت مجتمعكم وحسن منادمتكم وصحة ألفتكم فأحببت أن أكون واحداً منكم فلا تحتشمونى، فقالوا له: أهلاً وسهلاً على الرحب والسعة، فجلس وإياهم يحدثهم بألطف الأحاديث وأعذب الكلام ففتنوا به، ثم قالوا له: ما اسمك الكريم، قال: العباس بن الأحنف، قالوا: إن رأيت أن تحدثنا بسبب تشريفك إيانا، قال: السبب فى ذلك أنى أحب جارية فى جواركم فكنت أترقب مرورها لأنعم نظرى بوجهها الحسن، فما زلت على ما أنا به من الشغف والكلف والشوق إلى نور وجهها إلى هذا اليوم، فجلست حينًا أنتظرها فلم تمر فزاد منى لاعج الوجد وصرت كالحائر الولهان، فلما يئست من قدومها والنظر إلى رائق وجهها ورأيتكم على ما أنتم الآن من الأنس والطرب وددت مجالستكم والمؤانسة برقة كلامكم لأخفف عنى ما ترون من العشق والصبابة، فقالوا له: ساعدك الله على ما تريد فإنا فى قلق عليك، ثم ذهب عنهم ولم يعد إلا بعد عشرين يومًا، فتلقوه جميعًا بكل فرح وسألوه عن طول غيابه، فقال: دعانى أمير المؤمنين لأمر يهمه فذهبت إلى يحيى بن خالد فقال لى: ويحك يا عباس إنما اخترناك شاعراً ظريفًا ونديمًا لطيفًا لقرب مأخذك وحسن تأنيك فما لك لا تفتكر بنا ولا تأتى إلينا فإنه حدث بين أمير المؤمنين وإحدى وصائفه التى يحبها عتب وملام وخلاف وكلام، فهى بصفة معشوق تأبى أن تعتذر وهو بعز الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك وأرى أن تعمل بعض أبيات تكون أهلاً لاستمالة قلبه تسهل عليه استعباد الصبابة، ففكرت فلم يخطر لى شىء، فلما لج فى لومى كتبت له أربعة أبيات أعقبتها بيتين آخرين فقلت:

العاشقان كلاهما متغضب ... وكلاهما متوجد متعتبُ
صدت مغاضبة وصدّ مغاضبًا ... وكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحبتك الذين هجرتهم ... إن المتيم قلما يحنب
إن التجنب إن تطاول منكما ... دب السلو له وعز المطلب

ثم كتبت تحت ذلك:

لا بد للعاشق من وقفة ... تكون بين الهجر والصرم

حتى إذا الهجر تمادى به ... راجع من يهوى على رغم

ثم وجهت بالكتاب إلى يحيى بن خالد فدفعه إلى الرشيد فقال: والله ما رأيت شعرًا أشبه بما نحن فيه من هذا فكأنى نصدت به، فقال له يحيى: رأنت والله يا أمير المؤمنين المقصود به هذا يقوله العباس بن الأحنف، ولما بلغ أمير المؤمنين قوله: (راجع من يهوى على رغم) استغرب ضحكًا حتى سمعت ضحكه الجارية، ثم دخل إليها بوجه بشوش على غير ما كانت تنتظر وبيده تلك الورقة فلما رأته عجبت لذلك وسألت عن سبب رضائه فقال: هو هذه الأبيات فاقرئيها بالله، فلما قرأتها سرت كثيرًا وقالت: من نظمها، قال: العباس بن الأحنف قالت: لله دره فكم أعطيته عليها، قال: ذهلت عن عطائه لكثرة فرحى واندهاشى، ثم أمرت لى بخلعة سنية، وعادت معه إلى سابق الحب ورائق العيش والوداد.

* * *

أبو العباس بن الأحنف

قال الأصمعى: بينا أنا ذات يوم قاعد فى مجلس بالبصرة فإذا بغلام أحسن الناس وجهًا ونورًا واقف على رأسى فقال: إن مولاى يريد أن يوصى إليك فقمت معه، فأخذ بيدى حتى أخرجنى إلى الصحراء فإذا أنا بالعباس بن الأحنف ملقى وهو يجود بنفسه ويقول:

يا بعيد الدار عن وطنه ... مفردًا يبكى على شجنه

كلما جد النحيب به ... زادت الأسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه فانتبه بصوت طائر على شجرة وهو يقول:

ولقد زاد الفؤاد شجى ... هاتف يبكى على فنه

شاقنى ما شاقه فبكى ... كلنا يبكى على سكنه

ثم أغمى عليه فظننتها مثل الأولى فإذا هو ميت.

* * *

عنترة وعبلة

أحب عنترة بن شداد عبلة ابنة عمه وزاد هيامه بها، ففى أحد الأعياد بينما كان سائرًا بين الخيام وقع نظره عليها وهى تخطر فى هالة حسناء من ربات المعاطف وغادات الدلال فزاد منه الهيام وأنشد:

رمت الفؤاد مليحة عذراء ... بسهام لحظٍ ما لهن دواء
مرت أوان العيد بين نواهدٍ ... مثل الشموس لحاظهن ظباء
فاعتادنى سقمى الذى فى باطنى ... أخفيته فأذاعه الإخفاء
خطرت فقلت قضيب بان حركت ... أعطافه بعد الجنوب صباء
ودنت فقلت غزالة مذعورة ... قد راعها وسط الفلاء بلاء
وبدت فقلت البدر ليلة تمه ... قد قلدته نجومها الجوزاء
بسمت فلاح ضياء لؤلؤ ثغرها ... فيه لداء العاشقين شفاء
سجدت تعظم ربها فتمايلت ... لجلالها أربابنا العظماء
يا عبل مثل هواك أو أضعافه ... عندى إذا دفع الإياس رجاء
إن كان يسعدنى الزمان وإن أبى ... فلهمتى فى صرفه أدواء

فلما سمعت عبلة هذا الكلام وقع فى قلبها مثل ما فى قلبه من لاعج الحب والهيام فكتمت ما فى نفسها منه، فبينما كان عنترة أحد الأيام يقدم اللبن إلى الإماء والمخدرات لاحت له عبلة فأشغلت فؤاده وكاد يعدم عقله ورشاده فقدم لها اللبن قبل سمية زوجة أبيه شداد، فغضبت سمية لتلك الجسارة وثارت منها عوامل الغيرة فأخبرت أبيه بما جرى فأمر بأن يشد وثاقه ويحبس فى بعض الخيام فحبس فهجم يومًا قومٌ على حيهم حين غاب شداد عنه فقتلوا العبيد وأخذوا يسبون النساء والأطفال فلما علم عنترة بما جرى ورأى حبيبته عبلة حيرى بين الخيام عرضة للسبى والتهتك دفعته الشهامة إلى خلاصها وخلاص من معها، فتمطى بالوثاق فقطعه وهجم على القوم فمزقهم طرائق وخلص من أيديهم جميع النساء، فلما أتى شداد ورأى عنترة محلول الوثاق زاد منه الغيظ والغضب ونزل عليه بضرب السياط فوقفت سمية تظلله وتدفع عنه الضرب الموجع وقد انحدرت من طرفها العبرات

فعجب شداد لذاك الانقلاب وقال لها يا سمية قد كنت أنت سبب شده فى الوثاق وإثارة غضبى عليه فما لك الآن تحامينه بنفسك وتصبين إليه شفقة وحنانًا، فأعلمته سمية بما جرى وما أبداه عنترة من الشجاعة والمروءة فرق له وعفا عنه، فلما رأى عنترة ما أبدته سمية نحوه من الشفقة وما سكبته لأجله من العبرات أنشد يقول:

أمن سمية دمع العين منحدرُ ... أم من لهيب جوى فى القلب مستعرُ
قامت تظللنى والسوط يأخذنى ... والدمع من جفنها الفتان منهمر
كأنها حين ما أرخت ذوائبها ... بدرٌ بدا وظلام الليل معتكر
المال مالكمُ والعبدُ عبدكمُ ... والروح تفديكمُ والسمع والبصر

* * *

مفارقة عنترة لابنة عمه

كان عنترة من شدة حبه لعبلة وشغفه بها ينشد فيها الأشعار ويردد ذكرها دوامًا، فلما بلغ عمه ذلك الخبر غضب منه وحقد عليه فأبعده عن الأحياء التى فيها عبلة، فسار كئيبًا كسير الفؤاد إلى جهة بنى فزارة فنزل ورجل من قومه يدعى حذيفة على مرج أفيح وكان الوقت ربيعًا والأرض قد رفلت ببديع زهرها ونشرت حللها الملونات على الصحارى والربوات وفاح بها الزهر من سائر الجهات، فلما رأى حذيفة تقصير عنترة فى أكله وشربه قال له مشفقًا: يا عنترة إلى متى يكون هذا الغم والكمد ألا تعلم أن هذا يهدم ما تبنيه من مجدك وعلاك وأن عمك خاسر فى هذه الفعال التى سوف يندم عليها، فقال عنترة: والله يا حذيفة لا آسف إلا على الجميل الضائع وعدم اعتبارى فى أعينهم، ثم جالت الدموع فى عينيه وتحسر مما جرى له فقام وأوسع فى الفلاة ليسلى نفسه من ذاك البلاء وإذا بسرب حمام تساقطن على أغصان الشجر وتجاوبن بالنوح كما تتجاوب النساء الثاكلات فأجرين من جفناته العبرات وتصاعدت من أنفاسه الزفرات فأنشد:

يا طائر البان قد هيجت أشجانى ... وزدتنى طربًا يا طائر البان
إن كنت تندب إلفًا قد فجعت به ... فقد شجاك الذى بالنأى أشجانى
زدنى من النوح وأسعدنى على حزنى ... حتى ترى عجبًا من فض أجفانى

وانظر إلى نار وجدى لا تكن جفلا ... واحذر على الروح من أنفاس نيرانى
وطر لعلك فى أرض الحجار ترى ... ركبًا على عالجٍ أو دون نعمان
يسرى بجارية تنهل أدمعها ... شوقًا إلى وطنٍ ناءٍ وجيرانى
ناشدتك الله يا سرب الحمام إذا ... رأيت يومًا حمول القوم فانعانى
وقل طريحٌ تركناه وقد فنيت ... دموعه فهو يبكى بالدم القانى
ويسأل الريح من أى الجهات أتت ... عنكم سؤال سليب العقل حيران
أقسمت لو كان فوق الشمس منزلها ... أو فوق أعلى السها أو ظهر كيوان
لا بد أشفى غليل القلب من رجل ... بغدره عن بلوغ القصد أقصانى

* * *

أبو فراس الشاعر

أسر أبا فراس الشاعر جماعة من الروم فى بعض وقائعها وكان يحب فتاة رآها قبل الأسر، فبينما هو فى أسره طرأ مسمعه شدو حمامة بقربه تنوح على شجرة عالية فهاج منه ساكن الغرام وأنشد يقول:

أقول وقد ناحت بقربى حمامة ... أيا جارةً هل تشعرين بحالى
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببالى
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا ... تعالى أقاسمكِ الهموم تعالى
أيضحك مأسور وتبكى طليقة ... ويسكت محزون ويندب سالى
لقد كان أولى منك بالدمع مقلة ... ولكن دمعى فى الحوادث غالى

* * *

على بن زريق البغدادى وابنة عمه

كان له ابنة عم كلف بها أشد الكلف، ثم ارتحل عنها من بغداد لفاقة علته فقصد أبا الخير عبد الرحمن الأندلسى فى الأندلس ومدحه بقصيدة بليغة فأعطاه عطاء قليلاً، فقال ابن زريق: إنا لله وإنا إليه راجعون سلكت القفار والبحار إلى

هذا الرجل فأعطانى هذا العطاء، ثم تذكر فراق ابنة عمه وما بينهما من بعد المسافة وتحمل المشقة مع صبق ذات يده فاعتل غمًا ومات، وأراد عبد الرحمن بذلك أن يختبره، فلما كان بعد أيام سأل عنه، فتفقدوه فى الخان الذى كان فيه فوجدوه ميتًا وعند رأسه رقعة مكتوب فيها.

لا تعذليه فإن العذل يولعهُ ... قد قلت حقًا ولكن ليس يسمعهُ
جاوزت فى نصحه حدًا أضر به ... من حيث قدرت أن النصح ينفعه
فاستعملى الرفق فى تأنيبه بدلاً ... من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعًا بالخطب يحمله ... فضلعت بخطوب البين أضلعه
يكفيه من روعة التفنيد أن له ... من الجوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه ... عزم إلى سفر بالرغم يزمعه
تأبى المطالب إلا أن تكلفه ... للرزق سعيًا ولكن ليس يجمعه

ومنها:

أستودع الله فى بغداد لى قمرًا ... بالكرخ من فلك الإزرار مطلعه
ودعته وبودى لو يودعنى ... صفو الحياة وأنى لا أودعه
وكم تشفع بى أن لا أفارقه ... وللضرورات حال لا تشفعه
علىَّ الليالى التى أضنت بفرقتنا ... جسمى ستجمعنا يومًا وتجمعه
وإن تغل أحدًا منا منيته ... لا بد فى غده الثانى سيتبعه
وإن يدم أبدًا هذا الفراق لنا ... فما الذى بقضاء الله نصنعه

* * *

على بن الجهم وجارية له

كتبت جارية على بن الجهم له رقعة فأجاب فيها:

ما رقعة جاءتك مختومة ... كأنها خد على خدّ
تبدو سوادًا فى بياض كما ... ذر فتيق المسك فى الورد
ساهمة الأسطر مصروفة ... عن جهة الهزل إلى الجد
يا كاتبًا أسلمنى عتبه ... إليه حسبى منك ما عندى

فلم تمض مدة حتى كتبت له:

قلب يمل على لسان ناطقِ ويد تخط رسالةً من عاشقِ
مزج المداد بعبرة شهدت له من كل جارحة بقلب صادق
فيمينه تحت الوساد وخده ويساره فوق الفؤاد الخافق

* * *

على بن الجهم وجارية المازنى

قال على بن الجهم: دخلت على أبى عثمان المازنى وعنده جارية كأنها شقة قمر وبيدها تفاحة مقصومة فقالت: عرفت ما أراد الشاعر بقوله:

خبرينى من الرسول إليكِ واجعليه من لا ينم عليكِ

قلت: ما أعرفه، قالت: هو هذه ورمت لى بالتفاحة، فوالله ماوجدت لها جوابًا من نظير كلامها.

* * *

حب كثير لعزة

كان سبب دخول الهوى فى قلبه أن كثيرًا مر بغنم له ترد الماء على نسوة من صخرة بوادى الخبت، فأرسلت له عزة بدريهمات تشترى بها كبشًا لهن منه، فنظرها نظرة متأمل فداخله منها ما كان، فرد الدراهم وأعطاها الكبش وقال: إن رجعتِ أخذت حقى، فلما عاد سألته ذلك، فقال لا أقتضى إلا من عزة، فقلنَ له ليس فيها كفاءة فاختر إحدانا، فأبى وأنشد:

نظرتُ إليها نظرةً وهى عاتق على حين أن شبت وبان نهودها
نظرت إليها نظرة ما يسرنى بها حمر أنعام البلاد وسودها

فجعلن يبرزنها له كارهة حتى داخلها ما داخله من الحب.

* * *

كثير عزة والعجوز

خرج لزيارة عزة يومًا ومعه أدوات ماء، فجفت من الحر ورفعت له نار وإذا بعجور تناديه: من الرجل؟ فقال: صاحب عزة، فقالت له: أنت القائل:

إذا ما أتينا خلة كى تزيلنا ... أبين وقلنا الحاجبية أولُ
سنوليك عرفًا إن أردت وصالنا ... ونحن لتلك الحاجبية أوصل

هلا قلت كما قال جميل:

يا رب عارضة علينا وصلها ... بالجدّ تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تأمل ... حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو كان فى قلبى كقدر قلامة ... فضل لغيرك ما أتتك رسائلى

والله لا سقيتك شيئًا. فتركها وانصرف، ولما اشتدت حالته أنشد:

يزهدنى فى حب عزة معشرٌ ... قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الآذان إلا من القلب

* * *

كثير وعزة وغلامه

كان لكثير غلام يتجر على العرب فأعطى النساء إلى أجل، فلما اقتضى ماله منهن ماطلته عزة، فقال لها يومًا: وقد حضرت فى نساء، أما آن أن تفى بما عندك؟ فقالت: حبًا وكرامة لم يبق إلا الوفاء، فقال: صدق مولاى حيث يقول:

قضى كل ذى دين فوفى غريمه ... وعزة ممطول معنى غريمها

فقلن له: أتدرى من هى غريمتك؟ فقال: لا أدرى، قلن: هى والله عزة، قال: أشهدكنّ علىّ أنها فى حل مما عندها، ومضى فأخبر مولاه بالحكاية، فقال: وأنت حر وما عندك لك وأنشد:

سيهلك فى الدنيا شفيق عليكم ... إذا غاله من حادث الدهر غائله

يود بأن يمسى سقيمًا لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف فى طلب العلا لتحمد يومًا عند عز شمائله

ومما قال فيها:

لا تغدرن بوصل عزة بعد ما أخذت عليك مواثقًا وعهودا
إن المحب إذا أحب حبيبه صدق الصفاء وأنجز الموعودا
الله يعلم لو أردت زيارة فى حب عزة ما وجدت مزيدا
رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة خاشعين سجودا

* * *

أبو العتاهية ومحبوبته عتبة

كان لربطة بنت السفاح جارية حسناء رقيقة ظريفة أديبة بارعة فى الجمال والكمال وكان يعشقها أبو العتاهية، فوجهت سيدتها يومًا إلى عبد الله بن مالك الخزاعى فى شراء رقيق للعتق وأمرت عتبة أن تحضر ذلك، فبينما كانت جالسة إذ جاء أبو العتاهية فى زى متنسك فقال: جعلنى الله فداك شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة فإن رأيت أعزك الله شرائى وعتقى فعلت أجرًا عظيمًا فأقبلت على عبد الله فقالت له: إنى لأرى هيئة جميلة وضعفًا ظاهرًا ولسانًا فصيحًا ورجلاً أديبًا فاشتره وأعتقه، فقال: نعم، فقال أبو العتاهية: أتأذنين لى أصلحك الله فى تقبيل يدك، فأذنت له، فقبل يدها وانصرف، فضحك عبد الله بن مالك وقال: أتدرين من هذا؟ قالت: لا، قال: هذا أبو العتاهية وإنما احتال عليك حتى يقبل يدك، وظل أبو العتاهية مغرمًا بها إلى أن مات وجدًا ولم يشف منها غليلاً، ومما قاله فيها:

بالله يا حلوة العينين زورينى قبل الممات وإلا فاستزيرينى
هذان أمران فاختارى أحبهما إليك أو لا فداعى الموت يدعونى
إن شئت موتًا فأنت الدهر مالكة روحى وإن شئت أن أحيا فأحيينى
إنى لأعجب من حب يقربنى ممن يباعدنى عنه ويقصينى

يا أهل ودى إنى قـد لطفت بكم ... فى الحب جهدى ولكن لا تبالونى
الحمـد لله قـد كنا نظنكم ... من أرحم الناس طراً بالمساكين
أما الكثير فلا أرجوه منك ولو ... أطعمتنى فى قليل منك يكفينى

* * *

أبو دهبل الشاعر وعائلته

كانت عاتكة بنة معاوية بن أبى سفيان الأموى فتاة فتانة ناعسة الطرف جميلة القد تحسن الغناء وتبدع فى ضروبه، فاستأذنت يومًا من أبيها فى الذهاب إلى الحج، فسمح لها، فتجهزت وسارت مع رفيقاتها على ظهور المطايا، فلما وصلت إلى مكة بذى طوى، مر بها وهب الجمحى المعروف بأبى دهبل، وكان شاعراً جميلاً، فجعل يسارقها النظر وجمرات الوجد تتأجج بفؤاده قاذفة بالشرر، وكان الوقت هجيراً والجوارى رافعات عنها الأستار ففطنت له فذعرت وشتمته كثيراً، ثم أمرت بالسجوف فحجبت بظلامها شمس النهار، فقال:

إنى دعانى الحين فاقتادنى ... حتى رأيت الظبى بالباب
يا حسنة إذ سبنى مدبراً ... مستتراً عنى بجلبـــاب
سبحـان من أوقفها حرة ... صبت على القلب بأوصاب
يذود عنهـا إن تطلبتهـا ... أب لهـا ليس بوهـــاب
أحلهـا قصراً منيع الذرى ... يحمى بأبوابٍ وحجـاب

فشاعت أبياته فى مكة واشتهرت وغنى بها حتى سمعتها عاتكة إنشاداً وغناء فطربت لها وسرت وبعثت إليه تهديه فتراسلا وتحابا، ولما عادت من مكة خرج فى ركبها إلى الشام فكانت تتعاهده باللطف والإحسان حتى إذا وردت دمشق ورد معها فانقطعت عن لقائه فمرض حتى عز شفاء دائه فقال:

طـال ليلى وبت كالمجنـون ... وملـت الثـواء فى جيـرون
وأطلت المقـام بالشـام حتى ... ظنّ أهلى مرجحـات الظنون
فبكـت خشيـة التفرق جمل ... كبكـــاء القرين إثر القرين
وهى زهراء مثل لؤلؤة الغـواص ... نيرت من جـوهر مكنـــون

وإذا مـــا نسبتها لم تجدهـا في سناء من المكـــارم دون
ثم خاصرتها إلى القبة الخضـــراء تمشي في مرمر مسنـــون
ليت شعري أمن هوى طار نومي أم براني الباري قصير الجفـــون

ففشا هذا الشعر حتى بلغ معاوية أباها، فصبر حتى إذا كان يوم الجمعة دخل عليه الناس يسلمون وينصرفون وكان فيهم وهب، فلما أزمع الرجوع ناداه معاوية حتى إذا خلا لهما الجو قال: ما كنت أحسب أن في قريش أشعر منك حيث تقول:

ليت شعري أمن هوى طار نومي أم براني البـــاري قصير الجفـــون

غير أنك قلت:

وإذا ما نسبتها لم تجدهـا في سناء من المكارم دون

والله إن فتاة أبوها معاوية وجدها أبو سفيان وجدتها هند بنت عتبة لكما ذكرت وأي شيء زدت في قدرها، ولقد أسأت بقولك: « ثم خاصرتها . . . إلخ»، فقال: والله لم أقل هذا وإنما قيل عن لساني، فقال معاوية: أما مني فليهدأ روعك لأني عليم بعفاف ابنتي وأنه مغتفر لفتيان الشعراء التشبب بمن أرادوا ولكني أكره لك جوار أخيها يزيد فإن له سورة الشباب وأنفة الملوك، فحذر وهب ورحل إلى مكة، فبينما معاوية في مجلسه يومًا إذا بخصي يقول له: لقد ورد يا أمير المؤمنين إلى عاتكة اليوم كتاب أبكتها تلاوته بما أصارها حتى الساعة حزينة، فقال: علَيَّ به بألطف حيلة، فلما أوتيه قرأ فيه:

أعاتك هلا إذ بخلت فلا ترى لذي صبوة زلفى لديك ولا يرقى
رددت فؤادًا قد تولى به الهوى وسكنت عينًا لا تمل ولا ترقى
ولكن خلعت القلب بالوعد والمنى ولم أر يومًا منك جودًا ولا صدقا
أتنسين أيامي بربعـــك مـــدنفًا صريعًا بأرض الشام ذا سقم ملقى
وليس صـــديق يرتضى لوصية وأدعو لدائي بالشراب فمـــا أسقى
وأكبر همي أن أرى لك مرســـلاً فطول نهاري جالسًا أرقب الطرقا
فواكبدي إذ ليس لي منك مجلس فأشكو الذي بي من هواك وما ألقى
رأيتك تزدادين للصب غلظة ويزداد قلبي كل يوم بكم عشقا

فبعث إلى يزيد: فلما جاء وجده مطرقًا كئيبًا، فاستجلاه الأمر، فقال: هو نبأ

يقلق فيمرض إن هذا الوغد القرشي كاتب أختك بهذه الأبيات فلم تزل باكية حتى الساعة، قال يزيد: الخطب دون ما تتوهم عبد لنا يرصده ويقتله، فقال معاوية: يا يزيد والله إن تقتل قرشيًا هذا حاله صدق الناس مقاله، قال: يا أمير المؤمنين إنه نظم أبياتًا غير هذه تناشدها المكيون فسارت حتى بلغتني فأوجعتني وحملتني على ما أشرت، فقال: وما هي؟ فأنشد:

ألا لا تقل مهلاً فقد ذهب المهلُ ... وما كان من يلحى محبًا له عقلُ
حمى الملك الجبار عنى لقاءها ... فمن دونها نخشى المتالف والقتل
فلا خير فى حب يخاف وباله ... ولا فى حبيب لا يكون له وصل
فواكبدى إنى اشتهرت بحبها ... ولم يك فيما بيننا ساعة بذل
ويا عجبًا إنى أكاتم حبها ... وقد شاع حتى قطعت دونه السبل

فقال معاوية: والله قد فهمت المعنى لأنى أراه يشكو الحرمان فالخطب فيه يسير، ثم حج عامئذٍ للسبب عينه، ولما انقضت المناسك دعا بأشراف قريش وشعرائهم وأجزل لهم الصلات، فلما أزمع وهب الانصراف قال: إيه يا وهب ما لى أرى يزيداً ساخطًا عليك فى أبيات تأتيه عنك وشعر تنطق به، فاعتذر أبو دهبل وأنكر ما أشيع عنه، فقال معاوية: لا بأس عليك وما يضرك ذلك فأى بنات عمك أحب إليك؟ قال: فلانة، قال: قد زوجتك بها وأمهرتها بألفى دينار ووهبتك ألف دينار، فلما استوفاها قال: إن أرى أمير المؤمنين أن يعفو عما مضى وأما ابنة عمى فهى طالق وحسبى ذكر عاتكة والتمتع منها بالنظر، فوفى بوعده وبقيت عاتكة مغرمة به إلى أن مات.

* * *

إبراهيم الموصلى وذات الخال

كان إبراهيم الموصلى يعشق جارية فتانة لابن الخطاب وكانت تحتجب دومًا فى خبائها عند سيدها المذكور، فلما أنس إبراهيم منها ذلك أنشد يقول:

ما بال شمس أبى الخطاب قد حجبت ... يا صاحبى لعل الساعة اقتربت
أو لا فما بال ريح كنت آنسها ... عادت علىَّ بضرٍّ بعد ما جنبت

إليك أشكو أبا الخطاب جاريةً غريرة بفؤادى اليوم قد لعبت
وأنت قيمها فانظر لعاشقها يا ليتها قربت منى وما بعدت

وقال فيها أيضًا:

جزى الله خيرًا من كلفت بحبه وليس به إلا المموه من حبى
وقالوا قلوب العاشقين رقيقة فما بال ذات الخال قاسية القلب
وقالوا لها هذا محبك معرضًا فقالت أرى إعراضه أيسر الخطب
فما هو إلا نظرة بتبسم فحب انتهاك النفس فى معرض الحب

ولعب إبراهيم الموصلى يومًا بالشطرنج مع ابن زيدان صاحب البرامكة، فدخل عليهما إسحاق، فقال أبوه: ما استفدت اليوم فقال أعظم فائدة رجل سألنى ما أفخم كلمة فى الفم، فقلت: «لا إله إلا الله»، فقال أبوه إبراهيم: أخطأت فهلا قلت دنيا ودينًا، فغضب ابن زيدان وضرب إبراهيم الموصلى، وقال: ويحك أتكفر بحضرتى؟ فأمر إبراهيم غلمانه فضربوا ابن زيدان ضربًا شديدًا فانصرف من ساعته إلى جعفر بن يحيى وحدثه الخبر، وعلم إبراهيم أنه قد أخطأ وجنى ذنبًا فركب إلى الفضل بن يحيى فاستجار به، فاستوهبه الفضل بن جعفر، فوهبه له، فانصرف وهو يقول:

إن لم يكن حب ذات الخال عنانى إذًا فحولّت فى مسك ابن زيدانِ
فإن هذى يمين ما حلفت بها إلا على الصدق فى سرى وإعلانى

* * *

حمدة بنت زياد الشاعرة

كانت فتاة جميلة شاعرة أديبة كأن الأدب نقطة من حوضها وزهرة من روضها لها المنطق العذب والكلام الحلو والثغر الساطع الفتان، وكانت ذات مطارحة وأخلاق تحدث عن لطفها الزهر غب الأديم ونم بمرآها على الحدائق ريح الصبا وساريات النسيم ومما قالت فى الغزل:

ولما أبى الواشون إلا افتراقنا وما لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارةٍ وقل حماتى عند ذاك وأنصارى

غزوتهم من مقلتيك وأدمعى ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

وخرجت مرة للوادى مع حبيبة لها فرأت الأزهار فى جوانبه تتلألأ كأنها النجوم تساقطت من كبد السماء والماء فى النهر يتماوج كأنه قطع من لجين ترمقه عيون ذكاء، فأعجبها ذلك المنظر البهج وأحبت أن تخوض بذلك النهر إتمامًا لترويح النفس فى تلك الخلوة فنضت عنها الثياب وعامت ثم أنشدت تقول:

أباح الدمع أسرارى بوادى له للحسن آثار بوادى
فمن نهرٍ يطوف بكل أرضٍ ومن روضٍ يروق بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة أنسٍ سبت لبى وقد ملكت فؤادى
لها لحظٌ ترقده لأمر وذاك الأمر يمنعنى رقادى
إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيقٌ فمن حزنٍ تسربل بالحداد

* * *

أبو الشيص الشاعر

قال أبو الشيص شعرًا لطيفًا فى حادثة غرام جرت له:

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدمُ
أجد الملامة فى هواك لذيذة حبًا لذكرك فليلمنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى عامدًا ما من يهون عليك ممن يكرم

* * *

أسماء ومجيد

كان لسيد بنى بشر ابنة بديعة الجمال لطيفة القد والاعتدال يقال لها أسماء فسمعت ذات يوم بذكر فتى شاعر حسن الوجه رائق الجمال يقال له مجيد فتشوقت إلى لقياه لتسمع كلامه وتختبر شعره ونظامه، فخرجت يومًا مع بنات عمها إلى

غدير قريب منه فبينما هى بالانتظار إذا بمجيد مقبلاً إليها بوجه يفضح البدر ويزهر على النجوم الحسان، فلما رأينه البنات هممن إليه وسلمن عليه وقلن له أهلاً وسهلاً فنحن بانتظارك مع سيدتنا، وكانت أسماء تزهو عليهنَّ حسنًا وجمالاً وقد تمايلت بغصنها الذابل بين أترابها العذارى فلاحت كالبدر بين الكواكب، فلما رآها عرفها ومال قلبه إليها طوعًا لسحر أجفانها وعينيها فسلم عليها وأنشد:

سلامٌ على من جاورونا فأشرقت ... بهم أرضنا حتى انجلى ليلها عنا
وأهلاً ببدرٍ زار من غير موعدٍ ... ولم يتعب الصب المعنى ولا عنا

فأجابته تقول:

يا من تولع قلبه بجمالنا ... اصبر لعلك فى الهوى تحظى بنا
فلقد علمنا أن حبك صادقٌ ... وأصاب قلبك ما أصاب فؤادنا

وما زالا يبثان نار الوجد والغرام إلى آخر النهار ثم افترقا عن بعضهما بقلب كاد أن يفارق الجسد، ولما علم بذلك أعمامه وأقرباه نهوهُ عن حب تلك الفتاة فلم يتهِ بل هام فيها أكثر من الأول وسار كالعادة نحو الغدير عله يرى وجه أسماء فلما وصل لم ير أحدًا فهاج منه لاعج الغرام وأنشد يقول:

رحل الصبرُ والغرام أقاما ... فى فؤادٍ ما ذاق قط مناما
كنت غرًا بحادثات الليالى ... ليتنى ما عرفت لى أعماما
يا جفونى جودى على فقد أسما ... لا سقى الغيث بعدها الأياما
فكأن السنام صار سمومًا ... فى مطاوى قلوبنا أو جساما
هل ترى بات قلبها مثل قلبى ... هائمًا يشتكى الضنا والسقاما
يا ظباء الصريم قد أصبح اليوم ... حلال الغدير عندى حراما
وكذا نبته على جانبيه ... بات مثلى متيمًا مستهاما
يشتكى للضنا فينهل دمعًا ... ويروى بهارها والخزاما

وما زال على تلك الحال يأتى فيناجى الخيال فى ذاك الغدير المنفرد إلى ذات يوم بينما كان جالسًا يفتكر فى أسماء أتاه رسول من قبلها يعلمه عن مكانها وما هى فيه من العشق والصبابة وأنها قريبًا تأتى للغدير لأجل الإقامة، فلما علم بذلك الخبر رقص قلبه من الفرح وسار توًا إلى الغدير فرآها بانتظاره على مثل نار الغضا، فسلم عليها وأنشد:

أهلاً وسهلاً ببدر غاب عن نظرى وبدل النوم بالأفكـار والسهـر
غبتم فأظلمـت الدنيـا لغيبتكم حتى توهمتهـا ليـلاً بلا قمر

فأجابته أسماء تقول:

يا نور عينى وحق البيت والحجر ما غاب شخصك عن قلبى ولا نظرى
ولا وردت غديراً إذ مررت به إلا وجدت خيـالاً منك بالنهر

فلما سمع كلامها كاد يذوب من الهيام ودام معها على حديث وشكوى مدة من الزمان ثم اعتذرت رغمًا عنها وسارت إلى أهلها، ولما رأى أبو الفتاة علائم الضعف لائحة فى وجهها سألها عن السبب فأبت إفشاءه فألح فأطلعته عليه وكان يحبها حبًا شديداً ولا يريد إلا راحتها، فأرسل إليه فقدم فزوجه بها ودفعها إليه.

* * *